مقدمات للصغار .. والكبار

غنّوا ... يا أطفال

بقلم سليمان العيسى

تستعد « دار الآداب » لاصدار سلسلة جديدة للصغار ذات اتجاه قومي تقدمي ، تتضمن ما يزيد عن مئة نشيد واغنية من شعر سليمان العيسى .

وهذه مقدمة السلسلة :

بالشمس ، والهواء ، والماء
تتفتّح أزهار الربيع .
وبالموسيقا ، والحركة ، والغناء ،
يتفتّح الاطفال على كل جميل ورائع .
دعوا الطفل يغنّي
بل غنّوا معه .. أيها الكبار .
دعوه يتفتّح ..
ان الكلمة الحلوة الجميلة
التي نضعها على شفتيه
هي أثمن هدية نقدمها له .

لكي يحب الاطفال لغتهم
لكي يحبوا وطنهم
لكي يحبوا الناس، والزهر، والربيع والحياة ،
علموهم الاناشيد الحلوة ..
أكتبوا لهم شعرا جميلا
شعرا حقيقيا .

أصدقائي الصغار
سألتني عصفورة ذكية
كانت تقف على نافذتي ، وتنظر اليّ
وأنا أكتب هذه الكلمات .
قالت :
ماذا تعني بالشعر الحقيقي ؟
رفعت رأسي عن الورقة ،
وقلت لها :
أعني الشعر السهل الصعب
القريب البعيد ، في وقت واحد .
سهل .. لان الصغار يغنّونه
ويحفظونه في الحال ..
وصعب .. لان بعض معانيه وصوره
تظل غامضة ، بعيدة عن مداركهم
بعض الشيء .

وقد تعمدت هذه السهولة والصعوبة
في شعر الاطفال ، وسميتها :
المعادلة الشعرية الجميلة .
معادلة .. أبذل جهدا كبيرا
كي أحققها في كل نشيد
بل في كل بيت أحيانا ،
على قدر ما أستطيع .

هزت العصفورة الذكية رأسها ،
وقالت :
لم أفهم جيدا .
أوضح لي .
أريد أن أفهم .
هذا موضوع يهمني .
هذه حكاية تهمّ العصافير جميعا .

قلت : انني أحرص ، يا عصفورتي الحلوة ،
أن تكون في النشيد الذي أكتبه للصغار
العناصر التالية :

١ ــ اللفظة الرشيقة الموحية ، الخفيفة الظل ، البعيدة الهدف ، التي تلقي وراءها ظلالا وألوانا ، وتترك اثرا عميقا في النفس .
هل تريدين مثالا على ذلك ؟

اسمعي هذين البيتين :
أنت نشيدي عيدك عيدي
بسمة أمّي سرّ وجودي
انني أتجنب كل لفظة متعجرفة ثقيلة الظل ، ضعيفة الاشعاع .

٢ ــ الصورة الشعرية الجميلة التي تبقى مع الطفل طوال حياته مرة .. ألتقطها من واقع الاطفال وحياتهم
ومرة .. أستمدها من أحلامهم وأمانيهم البعيدة
ــ لعلّك تنتظرين المثال ؟
ــ نعم . أنا بانتظار المثال .

ـ حسنا.. اسمعي هذين البيتين :

أنا عصفور ملء الدار
قبلة ماما ضوء نهاري

٣ ـ الفكرة النبيلة الخيّرة ، التي يحملها الصغير زادا في طريقه ، وكنزا صغيرا يشعّ ويضيء .

واليك يا عصفورتي المثال :

النور للجميع والحب للجميع
من زهرة واحدة لا يصنع الربيع
تساندي تساندي يا وحدة السواعد
غلالنا الخضراء
والخير والعطاء
لا بد أن يكون للجميع

٤ ـ الوزن الموسيقي الخفيف الرشيق ، الذي لا يتجاوز ثلاث كلمات أو أربعا ، في كل بيت من أبيات النشيد . والموسيقا رئة الشعر العربي التي يتنفس بها ، وسرّ جماله ، وبقائه ، وأثره في الاجيال :

تظلّ بلادي هوى في فؤادي
ولحنا أبيّا على شفتيّا

انني أحرص على أن يتشابك في النشيد الذي أكتبه للصغار الوضوح والغموض ، الواقع والحلم ، المحسوس والمعقول ، الحقيقة والخيال ...

كل ذلك في كلمات مدروسة بعناية .

أفهمت الآن ، يا عصفورتي الذكية ؟

هزت العصفورة رأسها وقالت :

بدأت أفهم .

قلت :

ولكني لا أريد أن تفهمي الآن .

أريد أن تغنّي مع أطفالنا .

الهدف الاول من هذه الاناشيد هو الغناء .

وبعدئذ ... يأتي كل شيء .

قالت العصفورة ـ وهي تهمّ أن تطير ـ :

هل تعرف ؟

اني أحفظ نشيد ماما وأغنّيه .

قلت :

هذا يسرّني جدا .

قالت :

وأردد في نهايته ، كما يردد الاطفال :

سليمان العيسى .

قلت : شكرا .

شكرا لك ، وللاطفال على هذه المكافأة العفوية ، الغالية ، التي لم أكن أتوقعها .

انها المكافأة الوحيدة التي تلقيتها في حياتي حتى الآن .

هل تصدقين ؟

قالت : أصدّق . ان الذين يحملون همومنا ، ويفكرون بنا ، لا ينتظرون مكافآت .

نحن مكافأتهم الكبرى .

وطارت العصفورة الحلوة الذكية وتركتني

تركتني معكم ، يا أطفال .

* * *

أصدقائي الصغار !

يسألونني كثيرا :

لماذا تكتب للاطفال ؟

وأجيب :

ولمن تريدون أن أكتب ؟

وهل هناك موضوع أجمل ، وأغنى ، وأهمّ ؟

وهل شبع أدباؤنا وشعراؤنا من الكتابة للصغار ،

حتى أسكت أنا ، وأطوي هذه الرغبة بين الضلوع ؟

أدبنا العربي ـ أمدّ الله عمره ـ محروم من شعر الاطفال .

قلت هذا أكثر من مرة .

وشعراؤنا ـ حفظهم الله ـ ما زالوا يخجلون من وضع بسمة الملائكة على شفتي طفل ،

أعني من كتابة نشيد للصغار

يخجلون .. أو يترفعون .. أو يتهيبون .

لا أدري .

تظلّ النتيجة واحدة

ويظلّ أطفالنا محرومين من بسمات الملائكة على شفاههم

أعني من الاناشيد الجميلة الجميلة من الشعر الحقيقي

ويظل أدبنا العربي ذو التاريخ العظيم محروما أحلى ينابيعه ،

أعني : شعر الاطفال .

ورحم الله أستاذنا أحمد شوقي الذي أحسّ هذا قبلي ، وفتح لنا الطريق .. أيا كان الطريق .

* * *

لماذا نكتب للصغار ؟

الجواب :

لانهم فرح الحياة ، ومجدها الحقيقي .

لانهم المستقبل

لانهم الشباب الذي سيملأ الساحة
غدا أو بعد غد
لانهم امتدادي وامتدادك
في هذه الارض .
لانهم النبات الذي تبحث عنه
أرضنا العربية لتعود اليها
دورتها الدموية التي تعطلت
ألف عام ، وعروقها التي
جفت ألف عام
قل : أكثر من ألف عام ..
ألا يكفي هذا ليشدّني اليكم
يا أصدقائي الصغار
ويربطني بكم يوما بعد يوم ؟

* * *

منذ يومين ، كان طفل في التاسعة
يقفز على الرصيف ، وهو يضرب
أوراق الخريف المتناثرة ،
برجله الصغيرة ، ويغني :

ورقات تطفر في الدرب
والغيمة شقراء الهدب
والريح أناشيد
والنهر تجاعيد
يا غيمة يا أم المطر
الارض اشتاقت فانهمري
الفصل خريف .

وكانت أمه تشدّه من يده
وتستعجله ليلحق بها ،
وهو منصرف الى لعبته
مع أوراق الرصيف
ونشيده الذي ابتكر لحنه بنفسه .
وكنت أنا على الرصيف ،
قريبا من صديقي الصغير ،
وكل صغير صديقي ،
أستمع الى كلماتي السابقة
وقد تحولت الى « سمفونية » (١)
صغيرة من الحركة والحب والبراءة ،
بين قدميه . انه لا يعرفني
ولكن صدقوني ان لعبة الصغير
الموسيقية كانت أجمل مكافأة يمكن
أن يتلقاها شاعر على نشيد .

* * *

اني لا أكتب للصغار لأسليهم .
ربما كانت أية لعبة أو كرة صغيرة
أجدى وأنفع في هذا المجال .
اني أنقل اليكم تجربتي القومية
تجربتي الانسانية
تجربتي الفنية
أنقل اليكم همومي وأحلامي
يا أعزائي الصغار
وعندما تكبرون قليلا ،
سترون اني لم أخدعكم ،
لم أضع وقتكم الناضر الثمين
بشيء تافه .
انكم أغلى عليّ ، وأعزّ عندي
من ذلك . أغلى كثيرا ، وأعزّ كثيرا .
انكم جديرون بأن تحملوا الامانة
العظيمة
منذ الآن ... أمانة بعث الامة
العربية العظيمة ، المنكوبة ، الممزقة ،
وعودتها الى موكب الانسانية ،
لتساهم في الابداع والعطاء
مرة أخرى
كما أبدعت وأعطت عبر التاريخ .

* * *

كبيرة هذه الكلمات على طفل
أليس كذلك ؟
ربما همس بهذا بعض الكبار
وهم يقرأون هذه السطور .
أنا أعتقد ان الشجرة العظيمة
بنت الغرسة العظيمة .
وان الصغير الذي يحمل في طفولته
فكرة كبيرة ، هو الذي يخلق
الوطن الكبير ، والحياة الخصبة
المبدعة .

* * *

غنّوا معي اذن ، أيها الصغار .
غنوا معي أيها الملايين من الاطفال
الذين حرموا الضوء والفرح ،
والنشيد الجميل
كما حرموا الثوب والدفء والحذاء
الجميل .
غنّوا للحرية ، والثورة والحياة ..
يا أمل الحرية
ورصيد الثورة
وفرح الحياة .

دمشق

---

(١) السمفونية : قطعة موسيقية كبيرة تتالف عادة من اربع حركات .